قانون التوازن في القرآن الكريم
التوازن العقدي أنموذجًا

فاطمة علي حسن الشاوي
أ.م.د. ضرغام كريم الموسوي
كلية العلوم الاسلامية / جامعة كربلاء

The law of balance in the Holy Quran Nodal equilibrium as a model

Fatima Ali Hassan Al-Shawi
Asst.Prof.Dr. Dargham Karim Al-Moussawi
College of Islamic Sciences / University of Karbala
Email: fatima19711112@gmailcom

ملخص البحث

تناولت الباحثة عن طريق الدراسة التفسيرية قانون التوازن في القرآن الكريم، وكان التوازن العقدي انموذجا له ؛ لأنّ من أهم غايات القرآن الكريم هو إحداث تحول عالمي في الإنسان ، وهذا التحول الشامل لا يكون إلّا في ظل قانون إلهي شامل وكامل يستوعب الزمان والمكان والإنسان ، فهو بينة من بينات القرآن الكريم في أثبات ربانية القرآن ، والدالة على صحة نسبته إلى الله تعالى ، والتوازن العقدي هو أحد مفاهيم هذا القانون ؛ لأنّ منظومة العقيدة لا تتوازن ، ولا تنضبط إلّا بالتوحيد لله سبحانه وتعالى في جميع مستوياتها من الإقرار بوحدانية الخالق ، والإيمان والتصديق بالنبوة والامامة لأهل البيت عليهم السلام، وقد تناولها البحث في ثلاثة مطالب ، المطلب الاول التوازن العقدي في توحيد الله تعالى ، والمطلب الثاني التوازن في النبوة ، والمطلب الثالث التوازن في الامامة.

الكلمات المفتاحية : قانون التوازن، التوازن العقدي، العقيدة، الفطرة، التوحيد، النبوة، الامامة.

Abstract

Through the explanatory study the researcher dealt with the law of balance in the Noble Qur'an, and the decadal balance was a model for it; Because one of the most important goals of the Holy Qur'an is the events of a global transformation in man, and this comprehensive transformation can only take place under a comprehensive and complete divine law that accommodates time, place and man. It is one of the concepts of this law; Because the system of belief is not balanced and is not regulated except by the monotheism of God Almighty in all its levels of acknowledgment of the oneness of the Creator, belief and belief in the prophecy and the Imamate of the Ahl al-Bayt, peace be upon them. And the third requirement is balance in Imamate.

key word: The Law of Balance, Faith Equilibrium, Faith, Instinct, Monotheism, Prophethood, Imamhood.

المقدمة

جعل الله القرآن الكريم ميزانا لكل العلوم والعقائد والمعارف، فإذا أردنا أن نعرف القانون المتعلق بالعلوم الإنسانية كسلامة الأخلاق وعدمها ، أو إنَّ المجتمع حي أو لا، كل ذلك نزنه بالقرآن؛ لأنّ القرآن ميزان ، ووسيلة لتشخيص مثل هذه الأمور ووزنها، ولا يمكن تشخيص الميزان بشيء آخر، بل إنَّ عامل التوزين نفسه بما أنّه صحيح ذاتًا يستلزم صحة علاقة الميزان[1]، فأي عقيدة يراد أن تعرف بأنها العقيدة الحقة أم لا؟ فإننا نزنها بالقرآن عن طريق عملية الاعتقاد بتوحيد الله ونفي شريك للخالق ونفي التجسيم والتشبيه وغيرها من الأمور التي تجعل صفات الخالق كصفات البشر ولكي يقف البحث على ماهية التوازن العقدي فإنّه يتم في المطلبين الآتيين:

المطلب الأول : التوازن العقدي في توحيد الله:

وللوقوف على التوازن العقدي لابد من بيان المفردات الآتية :

أولا: العقيدة في اللغة والاصطلاح:

في اللغة: مشتقة من عْقَدْ، واعْتَقَدْتُ، وعْقَدْتُ: وهي ما عقد عليه القلب والضمير، حتى قيل العقيدة ما يدين الانسان به وله عقيدة حسنة سالمة من الشك [2].

وفي الاصطلاح: " هي عبارة عن مجموعة من أفكار، ومعارف ، وقضايا تثبت في الذهن ثبوتا حقيقيا جازما "[3].

ثانياً: العقيدة في معرفة الله:

منحنا الله عبر تدبر قرآنه الكريم قوة التفكير، ووهب لنا العقل، وأمرَنَا بالتفكر في خلقه والنظر في آثار صنعته، والتدبر في حكمة تدبيره ، واتقانها في الخلق والكون وفي آياته

(١) ينظر: التوحيد في القرآن، عبد الله الجوادي الآملي ، (د ط)، دار الصفوة ، بيروت – لبنان، ١٤٢٩هـ، ٢٤.

(٢) ينظر: المصباح المنير، الفيومي ، ٤٢١.

(٣) الدروس التوضيحية في شرح عقائد الامامية، طالب الساعدي النجف الاشرف ، كتاب الكتروني ، ٤.

الأنفسية والآفاقية ؛ قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ[1]﴾.

وإنَّ منظومة العقيدة لا تتوازن ولا تنضبط إلّا بالدعوة التي أتى بها الأنبياء ، وهدف جميع الأديان الإلهية، وهي معرفة الله، فأول حركة فكرية للبشر يجب أن تكون حول معرفة الله، وهذه المعرفة تكون بأنّ الله تعالى واحد أحد ليس كمثله شيء، هو الأول والآخر، قديم لم يزل ولا يزال، عليم حكيم، وعادل حي قادر، غني سميع بصير، وغيرها كثير من الصفات لا تثبت في منظومة العقيدة ، ولا تتكامل إلّا بالتوحيد لله سبحانه وتعالى من جميع الجهات، فكما يجب أن نوحده في الذات ونعتقد بأنّه واحد في ذاته ووجوب وجوده، كذلك في توحيد صفاته وبأنَّ صفاته عين ذاته، والعقيدة في معرفة الله تكون عن طريق الآتي:

الفطرة :

إنَّ معرفة الله من مكنونات الفطرة الإنسانية، والفطرة من " فطر الله الخلق، وهو إيجادُه الشيءَ وإبداعُه على هيئة مترشحة لفعل من الأفعال"[2]، كما في قوله تعالى: ﴿فِطْرَةَ الله التي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله﴾: أي خلقهم [3]، وهكذا التوحيد في العبادة ، ففي قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ [4]﴾، ففي الآية إرشاد وخطاب ما أودع في فطرة الإنسان من الدعاء لله سبحانه وتعالى عند وقوعه في الشدائد، ولجلاء الكروب وكشف الهموم، والتحذير الشديد للمعرضين عن طاعته، والآية تؤكد على ألوهيته –عزّ وجلّ – عندما ذكر الدلائل من العلم التام والقدرة الكاملة والإنجاء من الشدائد[5]، وقوله: ﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، "بيان لما هو مكنون في فطرة البشر من الإيمان الفطري والحاجة إليه ومخفيّها،

(١) سورة فصلت ، الآية : ٥٤.
(٢) مفردات ألفاظ القرآن ، الراغب ، ٦٣٨.
(٣) ينظر: المصباح المنير ، الفيومي ، ٤٧٦.
(٤) سورة الانعام ، الآية : ٦٣.
(٥) ينظر: مواهب الرحمن ، السبزواري ، ١٣/ ٤٤١.

والتضرع مع المبالغة في إظهار الضراعة، وهي الذل والخضوع... وإظهار لمكنون ضمائرهم على مقولات السنتهم"[١]، وقال رسول الله ﷺ: (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه)[٢].

التوحيد:

إنَّ القرآن الكريم لا يطرح التوحيد بصفته مركبا من بعدين هما النفي والإثبات، بأنْ ينفي صفة الألوهية عن الآلهة المزيفة، ويثبت الألوهية بعد ذلك[٣]، بل يعطي صفة التوازن في هذا التوحيد، ففي قوله سبحانه: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ[٤]﴾، وإنَّ علاقة الاستغفار من الذنب بتوحيد الله علاقة واقعية تفرضها الحقيقة الربانية من جهة والعبودية من جهة ثانية ؛ إذ إنَّ العقيدة بأحدية الله توجب العقيدة بعبودية الفرد ، ويبيّن القرآن الكريم علاقة العبد بالعبادة فهو يعدّ العبادة هدف الخلق ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ[٥]﴾، ومع أنَّ بعض الآيات تؤكد أنّ العبادة هي الهدف من خلق الإنسان إلّا أنّه هدف متوسط وليس نهائيًا وأخيرًا، فالهدف الأعلى من العبادة والتي هي وسيلة لتحقيقه هو بلوغ اليقين ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ[٦]﴾ ، ومهما يكن من أمر فإنَّ العبادة هدف المخلوق وليس الخالق، فالإنسان بوساطة العبادة يتبوأ المقام الشامخ لليقين، و(حَتَّى) في الآية لبيان منفعة وبركة عبادة وليس لبيان حدها وتوقفها بالوصول إلى اليقين[٧]، وخط التوحيد لابد فيه من الثبات والاستمرار؛ لأنّه أفضل وسيلة للنجاة والتدبر

(١) مواهب الرحمن، السبزواري ، ١٣/ ٤٤٢-٤٤٣

(٢) الكامل في ضعفاء الرجال ، الجرجاني ، عبد الله بن عدي (ت٣٦٥هـ) تح يحيى مختار غزاوي، ط٣، دار الفكر للطباعة والنشروالتوزيع، بيروت – لبنان ، ١٤٠٩هـ٣/ ٣٠٤، وينظر: المفيد، تفسير القرآن الكريم، محمد بن محمد بن النعمان(ت٤١٣هـ)، تح، محمد علي ايازي، ط١،مؤسسة بوستان مكتب الاعلام الاسلامي ، قم ،١٤٢٤هـ ،٥٠٨

(٣) ينظر: التوحيد في القرآن ، الآملي ، ١٣٨.

(٤) سورة محمد ، الآية : ١٩

(٥) سورة الذاريات ، الآية : ٥٦.

(٦) سورة الحجر ، الآية : ٩٩.

(٧) ينظر: تسنيم، الآملي ، ١/ ٤٨٧ – ٤٨٩.

في أمر التوحيد أكثر والارتقاء إلى المقامات الأسمى، فكلما تدبَّر من العلم أكثر سيصل إلى مراتب أرقى .

من هنا فقد أمر الله سبحانه على لسان نبيه ﷺ انطلاقا من فطرة التوحيد بأنْ يدعو الله، أو الرحمن وأنّه أيا ما يدعو فله الأسماء الحسنى ، وهو ما يمكن أن يكشف عن التوازن المجعول بين جميع أسماء الله الحسنى كما قال تعالى:﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لله فَلَا تَدْعُوا مَعَ الله أَحَدًا[1]﴾، إذ أنَّ التوازن العقدي لا يدعو مع الله أحدا؛ لأنَّ المساجد لله سبحانه ، وليس لأحد غيره؛ لذا فمن الإنصاف والعدل المنطلقين من الفطرة البشرية المجبولة عليهما ، والمنعقدة على التوازن القاضي بأنْ يوّجه الفرد المسلم الدعاء لله سبحانه وحده فحسب ؛ تحقيقا لمبدأ التوازن المتناسب مع حقيقة أنّ المساجد لله تعالى فقط ، وللتوحيد أثر توازني في الاتحاد والارتباط بين الناس؛ لأنّه إذا كان خالق الموجودات واحدًا، وهو الرازق بفيض عطاياه رزقًا محسوسًا ، أو فيضًا إلهيًا، فيكون الهدف والمبدأ واحدا، كما قال تعالى: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا[2]﴾، ولا بد من أن يكون الرجوع إليه وحده ؛ لأنَّ المنجى والمقصد والملجأ عنده دون غيره.

وإنَّ للتوحيد أربع مراحل هي كالآتي:

نفي الشريك في الإلهية، وهذا ما تم بيانه.

نفي الشريك في صانعية العالم وعدم الثنوية وأضرابهم، فعن الفضل بن شاذان، وكان حاضرا عندما سأل رجل الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام عن الثنوية، قال الرجل: (إني أقول إنّ صانع العالم اثنان، فما الدليل على أنّه واحد ؟ فقال عليه السلام: قولك إنّه اثنان، دليل على أنّه واحد؛ لأنّك لم تدع الثاني إلّا بعد إثباتك الواحد، فالواحد مُجمَع عليه، وأكثر من واحد مُختلَف فيه)[3].

(١) سورة الجن ، الآية : ١٨.
(٢) سورة الحج ، الآية : ٣٤.
(٣) التوحيد ، الصدوق ، أبو جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي (٣٨١هـ) ، تع هاشم الحسيني الطهراني،(د ط)، مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسي ، قم،(د ت) ، ٢٧٠.

تنزيه الخالق عما لا يليق بذاته وصفاته من النقص والعجز والجهل والاحتياج والتركيب.

تنزيهه عما يوجب النقص في أفعاله من الظلم وعدم اللطف أي ما يتعلق به تعالى ذاتا وفعلا ونفيا وإثباتا[١].

ويتضح التوازن بين المعرفة الفطرية التي تميل ، وتتحرك نحو توحيد الله وعبادته سبحانه وتعالى ، وبين الاستمرارية والثبات في خطى هذا التوحيد، وهناك علاقة جامعة بين الحاجة والغنى، فعندما يكون في الوجود عطش فلابد من وجود الماء، وإذا كان العالم محتاجًا فلابد من وجود الغني[٢]؛ ففي قوله تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[٣]﴾، تتحقق رغبة الاتصال به سبحانه وتعالى ، فهي توجب للخالق المحبة والخوف والرجاء في تكامل متوازن، لتعلم أنَّ الملجأ والمأوى الوحيد في العالم هو الله، فالتجئ إليه ولا تطلبْ إلّا منه، ولا تخفْ من كثرة المشاكل والأعداء؛ لتصل إلى الاستقرار النفسي والطمأنينة ، وبذلك فإنّك تتربَّى على قيم التوحيد والخشية والمراقبة والسعي بالنفس للسمو وبناء الشخصية الإسلامية.

فإذا حصلت حالة الاعتقاد السليم عند الإنسان بتوحيد الله فإنّها لا تخرج عن حد التوازن والاعتدال ، والأمر بين أمرين في عقيدة التنزيه : فلا تعطيل في ذات الله، ولا تشبيه في صفاته لمخلوقاته من غير زيادة على ذاته، وعقيدة الاختيار: وهو الاعتقاد بتأثير الله تعالى في أفعال العباد من حيث لا جبر ولا تفويض، بل هو الأقدار من الله والاختيار من العبد[٤].

ثالثا: التوازن بين الإرادة الإلهية المطلقة وإرادة الإنسان المحدودة:

فالإرادة من صفات الله التكوينية والتشريعية ، وهي إرادتان: تكوينية: يفيض منها

(١) ينظر: آيات العقائد، إبراهيم حجازي طبسي ، (١٣٧٧هـ) ، تح رامين الكلمكاني، ط ١، مجمع البحوث الإسلامية، مؤسسة الاستانة الرضوية المقدسة مشهد، ١٤٢٥هـ ، ٧٠.
(٢) ينظر: التوحيد في القرآن ، الآملي، ١٣٩.
(٣) سورة الحديد ، الآية : ٢.
(٤) ينظر : آيات العقائد ، طبسي ، ٨٠.

وجود جميع الكائنات والموجودات، وتشريعية تفيض منها جميع الأحكام والقوانين الشرعية من الأوامر والنواهي الإلهية[١] و الإرادة الإلهية : " مطلقة في مختلف المجالات، لن تّحد بحّدٍ، ولن يقف في قبالها شيء، لكنها بلطفها منحت الإنسان حريته وإرادته في ما يعمل، وأعطته القدرة على أن يريد وأن يحقق ما يريد، وهي تمده في كل آن بهذه القدرة ، ليتكامل وليصعد سلم الرقي المعنوي بنفسه "[٢]، ويفصح القرآن عن هذا المعنى بوضوح في سورة الليل في قوله تعالى:﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ۝٤ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ۝١٠ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى[٣]﴾، وهكذا تبدو الإرادة الإلهية بمثابة حلقة التوازن تربط بين الحرية الإنسانية والهيمنة الإلهية.

ولا يخفى ما في الآية من توازن جليّ بين فئتين ، فهناك من أعطى واتقى وصدّق بالحسنى فكانت عاقبته أن يسّره الله لليسرى في مقابل من بخل واستغنى وكذّب بالحسنى ، فكانت عاقبته أن يسرّه الله للعسرى ، فاليسر ضمن معايير التوازن بين الفريقين غير أنّه كلٌ بحسب سعيه وعمله؛ لأنّه ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ[٤]﴾، هذا بلحاظ ثمة حرية مطلقة للإرادة الإلهية؛ لأنَّ الشخص على الرغم من استقلاله الذاتي ، وحريته وقدرته على المبادرة ومواهبه يبقى تحت تصرف إرادة الله، وهي إرادة لامتناهية، ومطلقة، وحكيمة ومدبرة في حين أنَّ الإرادة الإنسانية على المستوى الدنيوي، متناهية، ونسبية، ومحدودة.

رابعًا: التوازن في تعدد النعم الإلهية مع المغفرة والرحمة:

كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ[٥]﴾، ويلاحظ التوازن الجلي بين الذي يستبطن حقيقة بداية العد والعجز التام عن الوصول إلى نهايته، في

(١) ينظر: نفحات القرآن، ناصر مكارم الشيرازي، ط١،مدرسة الامام علي بن ابي طالب عليه السلام،ايران-قم،١٤٢٦هـ، ٤/ ١١٧.
(٢) من الظواهر العامة في الاسلام ، التسخيري ، ٦٦.
(٣) سورة الليل ، الآيات :٤ – ١١.
(٤) سورة النجم ، الآية : ٣٩
(٥) سورة النحل ، الآية : ١٨.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ الله﴾، وقوله ﴿لَا تُحْصُوهَا﴾؛ ليؤكد حقيقة اتساع النعم الإلهية بنحو لا يمكن الإحاطة بها مطلقا ؛ لصدورها من محض الكرم وهو الله سبحانه وتعالى، ولأنّه أرحم وأرأف من أن يؤاخذنا على عدم الاستطاعة في أداء الشكر للنعم الإلهية(١).

إنَّ كثرة النعم الإلهية خارجة عن قدرة الإحصاء، وإنّ خروج النعمة عن حد الإحصاء جاء أي (كثرة النعم) متوازنا مع بركات اتصافه بصفتي المغفرة والرحمة ، فالمغفرة هي أن يستر الله ما في الأشياء من نقص وقصور، وبرحمته يتم هذا النقص ويرفع الحاجة فيظهر فيها الخير والكمال ويُحسنها بالجمال، ويكتمل التوازن بذكر صفة ثالثة من أركان الربوبية وهو العلم كما في الآية التي بعدها ﴿وَالله يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾، فانَّ الإله لو كان غير متصف بالعلم لاستوت العبادة وعدم عبادة بالنسبة إليه فكانت عبادته لغوا، لا أثر لها(٢).

خامسا: التوازن في قدرة الله مع اللطف والإحاطة:

كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ الله لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (٣)، " كلمة لطيف مشتقة من اللطف بمعنى العمل الجميل الذي يمتاز برقته ؛ لهذا يطلق على الرحمة الإلهية الخاصة لفظ (اللطف) وكلمة (الخبير) تعني المطّلع على الأمور الدقيقة وبلطفه تنمو البذرة تحت الأرض ثم ترتفع خلافًا لقانون جاذبية الأرض، وترى الشمس ، وتشم نسيم الهواء حتى تصبح نباتا مثمرا"(٤)، فالآية تتحدث عن التوازن في أصل القدرة الإلهية غير المحدودة في إنزال الماء، فعملية الإنزال متوازنة مع حاجة الكائنات بجميع أشكالها للماء، وحياة الأرض بخضرة النبات فهو سبحانه لطف بخلقه بحدث الإنزال الذي أنزله بقدرته وخبرته التي لا يضاهيها سواه ، وبعبارة أخرى إنَّ إنزال الماء من السماء جار بنحو من التوازن الجامع بين كمية الماء النازلة من السماء ، وبين حاجة

(١) ينظر: الامثل ، الشيرازي ، ٨/ ١٥٦
(٢) ينظر: الميزان ، الطباطبائي ، ١٢/ ٢١٩ – ٢٢٠ .
(٣) سورة الحج ، الآية : ٦٣.
(٤) الامثل ، الشيرازي ، ٨/ ٩٢.

الأرض إليها والتي تنعكس في صور الاخضرار والطبيعة الزاهية وما تتضمنه من أنواع الفواكه والخضر والحبوب.

سادسا: التوازن بين المغفرة والرحمة الواسعة والعقوبة الشديدة:

في قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ[١]﴾ إنَّ كلمة (عِبَادِي) فيها من التشريف واللطافة ما يجذب كل إنسان، ويصل ذلك الجذب إلى أوج شدته المؤثرة عند ختم الكلام بـ (الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)[٢]، ليقودهم ذلك إلى الرجوع لحركة المسؤولية في الخط المستقيم من أنَّ الخطيئة يمكن أن تذوب أمام المغفرة ؛ ولتوجد التوازن بين مسألتي (الخوف والرجاء)، في قوله: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾، وخلق توازن في وعي الإنسان بين ما يفتح للقلب أبواب الرجاء، وما يفتح الضمير على أجواء الخوف ويمنعه من التمادي في العصيان[٣]، فإنَّ تصور الرحمة يبعث في الإنسان الأمل والدافع للعمل، وتصور العقوبة يمنع ذلك الأمل من التغيير على الهدف ويضبطه من الانقلاب، وبذلك يتحقق نوع متكامل من التوازن البنّاء الذي من شأنه أن يعطي سبيل الإنسان وطريقه في عالم الدنيا وصولا إلى الآخرة نحوا من الثبات ، والاستقرار الضامنين لسعادة الدنيا والآخرة ، كما أنَّ مفهومي الرجاء والخوف النابعين من مفهومي الرحمة والعذاب لهما دورٌ كبيرٌ في تنظيم سلوكيات الإنسان في عالم الدنيا بشكل تتوازن معه الحقوق والوجبات، انطلاقا من مفهوم العدل الذي يمكن عدّه الوعاء الذي يحتضن هذا الشكل من التوازن.

المطلب الثاني : التوازن في النبوَّة:

ويمكن بيانه على الشكل الآتي:

أولًا: النبوة في اللغة والاصطلاح:

النبوة في اللغة من النبو:" أصل صحيح يدل على ارتفاع في الشيء عن غيره ، ويقال إنَّ

(١) سورة الحجر ، الآيات : ٤٩ – ٥٠.
(٢) ينظر: الامثل ، الشيرازي ، ٦/ ٦٢٧.
(٣) ينظر: من وحي القرآن ، فضل الله ، ١٣/ ١٦٧.

النبي ﷺ اسمه من النبوة وهو الارتفاع "[1].

وفي الاصطلاح: " هي وظيفة إلهية وسفارة ربَّانية، يجعلها الله تعالى لمن ينتجبه ويختاره من عباده وأوليائه الكاملين في إنسانيتهم، فيرسلهم إلى سائر الناس لغاية إرشادهم إلى ما فيه منافعهم ومصالحهم في الدنيا والآخرة"[2].

ثانيًا: الغرض من بعثة الأنبياء:

إنَّ الغرض من بعثة الأنبياء جاء بنص القران الكريم في مواضع عدة منها قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ[3]﴾ ويمكن بيان جملة من دواعي النبوة على النحو الآتي:

هداية الإنسان، ودعوته إلى الإيمان بالله تعالى وتوحيده وعبادته سبحانه.

تنزيه الإنسان وتزكيته من درن مساوئ الأخلاق، ومفاسد العادات.

تعليمه الحكمة والمعرفة.

بيان طرق السعادة والخير.

بلوغ الإنسانية كمالها اللائق بها، فترتفع إلى درجاتها الرفيعة في الدارين دار الدنيا والاخرة[4]، وورد عن رسول الله ﷺ قوله: (ولا بعث الله نبيًا ولا رسولاً حتى يستكمل العقل، ويكون عقله أفضل من عقول أمته)[5] وكذلك يشير أمير المؤمنين ﷺ في خطبته فقال: (وليعقل العباد عن ربهم ما جهلوه، فيعرفوه بربوبيته بعد ما أنكروا، ويوحدوه

(١) مقاييس اللغة ، ابن فارس ، ٥/ ٣٨٤ – ٣٨٥.
(٢) عقائد الامامية في ثوبها الجديد ، محمد رضا المظفر(ت ١٣٢٢هـ) ، ط١ ، الاميرة للطباعة والنشر ، بيروت – لبنان ، ١٤٢٩هـ ، ٦٩.
(٣) سورة الجمعة ، الآية : ٢.
(٤) ينظر: عقائد الامامية في ثوبها الجديد ،المظفر ، ٦٩.
(٥) الكافي ، الكليني ، ١/ ١٣.

بالإلهية بعد ما أضدوه)[1]، وإن تعددت أغراض البعثة للأنبياء فإنها تتلخص بمهمتين: صناعة الإنسان وتحريره من الدنيا ، وجعله متخلقا بالفضائل الإنسانية والأخلاقية، وإقامة المجتمع التوحيدي على وفق النظام الإلهي.

ثالثًا: صور التوازن في النبوة:

إنَّ جميع الأنبياء الذين ذكرهم الله في القرآن الكريم رسلٌ منه سبحانه وتعالى، وعباد مكرَّمون بُعثوا لدعوة الناس إلى الحق، وإنَّ النبي لابد من أن يتصف بجوامع الفضائل من الصدق والعدالة، والسخاء والشجاعة، والورع والوفاء والأمانة، والصبر والزهد والعفة، وأنْ يكون ذا علم ومعرفة، وكل الفضائل التي تسمو بالكمال الإنساني والروحي، والسؤال كيف مارس الأنبياء دورهم الرسالي في الحياة مع الأفراد في خلق الجو الاجتماعي المناسب والملائم للتربية والتهذيب والتزكية؟ والجواب: إنّه لا يخفى على الجميع أنَّ ركيزة التوازن في النبوة هي استمرار الاعتقاد بالفطرة السليمة ، والتوحيد ، وعبادة الخضوع ضمن منظومة تكاملية للعقيدة، بعقلية أدركت معنى العقيدة الصحيحة وانعكس هذا على الاعتقاد بأنَّ الله لطيف وحكيم بعباده بإرسال أنبيائه لإنارة طريق الحق للبشرية، وإنّ للتوازن دورا كبيرا في إظهاره في ضوء التوازنات التي سيتطرق إليها البحث، وهي كالآتي:

١ – التوازن بين بعثة الأنبياء وإقامة العدل:

إنَّ كمال الشيء هو: حصول ما فيه الغرض منه[2]، واستعمال الكمال في الدين يتحقق بعد تتميم الأجزاء إذا أضيفت إليها خصوصيات ومحسنات أُخر، فهي مرتبة بعد التمامية[3]، وإنَّ بعثة الأنبياء جاءت من أجل تكامل الإنسان والأخذ بيده وإعانته ؛ لأنَّ الواقع يؤكد أنَّ هناك نقصًا في حياة الإنسان، ولا يستطيع الإنسان سواء كان فردًا ، أو جماعة أن يملأ ذلك

(١) التوحيد ، الصدوق ، ٤٥ .
(٢) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن، الراغب ، ٧٢٦.
(٣) ينظر: التحقيق في كلمات القرآن الكريم ، مصطفوي ، ١٠/ ١٢٥ .

الفراغ، إلّا بمساعدة إلهية تتجسد في بعثة الأنبياء[1] كما أنّ من جملة موارد التوازن في الآية الشريفة ، هو إرسال الرسل بالبينات أي الحجج الدامغة التي من شأنها إقناع الناس على الإيمان بالأنبياء قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ[2]﴾ والآية واضحة الدلالة على أنّ الغرض من إرسال الأنبياء ، هو من أجل نشْر موازين القسط والعدل ، حتى تكون من شأن الناس ودينهم أن يقوموا بالقسط ، كيما يكون العدل الحاكم والمهيمن على شؤونهم.

ولا يخفى ما في ذلك من حقيقة التوازن بين إرسال الأنبياء من جهة ، وبين تحقيق الأهداف المنوطة بأنَّ يقوم الناس بالقسط من جهة أخرى ، وهو ما يؤكد حقيقة المهمة لكل رسول وهي إقامة العدل وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ[3]﴾ وقال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ[4]﴾.

كما أنَّ التوازن من بعثة الانبياء يتجسد في قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ[5]﴾.

يقول العلامة الطباطبائي (ت١٣٤٤هـ) في شرح الآية : إنَّ حاجة الناس ضرورية إلى الأنبياء؛ لأنَّ النفس الإنسانية راغبة للكمال، وهي واقعة في طريق الاستكمال، وبما أنَّ الله سبحانه و تعالى تام الإفاضة، فإنّه يعطي إفاضة لكل نفس مستعدة بما يلائم استعدادها من الكمال، ويتبدل إلى قوة فعلية من الكمال الذي يسمى سعادة إذا كانت ذات صفات حسنة وأخلاق وملكات فاضلة معتدلة، ومن الذي يسمى شقاوة إن كانت ذات رذائل

(١) ينظر: التكامل الاجتماعي للإنسان ، مرتضى محمد حسين مطهري (ت ١٣٩٩هـ)، ط٤، دار الهادي، بيروت – لبنان، ١٤٢٦هـ، ١٥.
(٢) سورة الحديد ، الآية : ٢٥.
(٣) سورة يونس ، الآية : ٤٧.
(٤) سورة ص ، الآية :٢٦.
(٥) سورة البقرة ، الآية : ٢١٣.

وأخلاق وهيئات رديّة[١].

وهذا يبعث أملًا واسعًا ودافعًا نحو تحقيق التوازن الذي يحتاجه الإنسان لسد النقص المعرفي الموجود فيه، والأنبياء حققوا التوازن المعرفي للتكامل عن طريق التعاليم التي أرسلها الله بوساطتهم، التي لولاها ، لما استطاع الإنسان أن يحقق توازنه المعرفي نحو التكامل سواء كانت على مستوى الطاعات والعبادات أو على مستوى المعاملات، " وفي ذلك إصلاح لحياتهم الفردية والاجتماعية من بدء الخلق إلى وقت الوفاة، وبيان لارتباط الناس بخالق الكون والعالم بعد الموت "[٢].

٢- التوازن بين المعجزة النبوية والغاية منها:

لقد بيّن القرآن الكريم أسباب النزول ، وذلك عن طريق عرْض لون عال من التوازن الرابط بين القرآن الكريم معجزة النبيﷺ وبين الغاية التي من أجلها أُنزل قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ[٣]﴾، فالآية بصدد بيان التوازن القائم بين نزول القرآن والهدف المشخّص من نزوله والمحّدد بالهدى والفرقان ثم أنّه سبحانه يَدلّنا على نوع آخر من التوازن ينتهي بالإنسان إلى الوقوف على حقيقة تلك المعجزة الإلهية الخالدة عبر إعمال التدبر قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا[٤]﴾ أي أنَّ التدبر بآيات القرآن أشبه ما يكون ميزانا يوصل الإنسان لهدفه ، ويبعث في نفسه الاطمئنان على أنَّ القرآن الكريم هو كلام الله تعالى على القطع؛ لأنّه لو كان من عند غيره سبحانه لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ، ويبسط القرآن صنفا جديدا من التوازن بين المؤمنين والظالمين قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا[٥]﴾.

(١) ينظر: الميزان ، الطباطبائي ، ٢/ ١٤٩ ، وينظر : تسنيم ، الآملي ، ١٠/ ٤٣١.
(٢) تسنيم ، الآملي ، ١٠/ ٤٣٢.
(٣) سورة البقرة ، الآية : ١٨٥
(٤) سورة النساء ، الآية : ٨٢
(٥) سورة الاسراء ، الآية : ٨٢

فالقرآن يكون فيه شفاء ورحمة للمؤمنين ، وكأنه توازن بين الفوز الخاص بالمؤمنين المتمثل بالشفاء والرحمة من جانب ، وبين الخسارة الخاصة بالظالمين من جانب آخر؛ لذا فلا عجب من أن يكون القرآن هو أحد الثقلين الذين أوصى بهما الرسول ﷺ حين قال: (إني تارك فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أحدهما أعظم من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما)[1].

فالقرآن هو الحبل المتين الذي أحد طرفيه بيد الله سبحانه وتعالى ، وعلى الإنسان الإمساك بالطرف الآخر بقوة وإصرار، ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا[2]﴾، وبقدر القوة التي يمسك بها الانسان يجنبه الله الأخطار ويقيه الأهوال والمصاعب، فإنَّ القرآن الكريم يعمل على المحافظة على الفرد والمجتمع من كافة أنواع المخاطر بهذا الاتصال الدائم والمستمر مع الله سبحانه ، والتمسك والالتزام بما جاء به من قوانين.

٣- التوازن بين الطاعة للمكلَّف والجزاء الإلهي:

من دواعي بعثة الأنبياء هي قاعدة اللطف ، وهو ما يدعو المكلَّف إلى فعل الطاعة وترك المعصية بحيث يجعله أقرب إلى امتثال أوامر الله تعالى وأبعد عن ارتكاب نواهيه[3]، وإنَّ هداية الناس التي منحها الله للأنبياء ، هداية تشريعية في التعليم والتزكية والدعوة إلى الله وحده لا شريك له ، وتطبيق أوامره وإقامة حدوده، فكّل نبيّ يمثل مجرى فيض الخالق ومظهر لطفه الخاص، فكل ما يصل إلى الخلق من نعمة إنّما هي من بركة وجود الأنبياء ، وإنَّ اللطف الإلهي الذي بعث الأنبياء ليقووا الرابطة بين العبد وربه ليزداد تقربا بالطاعة[4]، فيقول جل شانه:﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا

(١) ينظر: الخلاف ، ابي جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ)،(د ط) مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة الدرسين، قم ، ١٤٠٧هـ ،١/ ٢٨

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٠٣

(٣) ينظر: ا دروس توضيحية في شرح عقائد الامامية ، الساعدي ، ٩٣.

(٤) ينظر: تسنيم ، الآملي ، ١٢/ ٥٧٧ –٥٨٨.

تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ[١]﴾، والاستقامة للإنسان هي لزوم المنهج المستقيم، وإقامة الشيء: توفيه حقه[٢]، وفي قوله (ثُمَّ اسْتَقَامُوا) لزوم وسط الطريق من غير ميل وانحراف والثبات على القول الذي قالوه[٣]، " إنّه خط التوحيد والاستقامة في اتجاهه ، بحيث لا ينحرف ذات اليمين وذات الشمال، التي تختصر الرسالة في كل تفاصيلها المتعلقة بالحياة والناس"[٤] كما أنّ الآية تلفت الأنظار إلى شكل من أشكال التوازن إذ يقرّر سبحانه حقيقة أنَّ المؤمنين﴿قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ يكون جزاؤهم عليه –جلّ شأنه– جزاءً متوازنا يتناسب مع استقامتهم وإقرارهم بالله ربّا؛ ليكون بتنزيل الملائكة عليهم أمنا من الخوف والحزن ، والبشارة بالجنة التي وعدهم بها سبحانه يقول تعالى:﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ والاتجاه نفسه يكوّن التوازن بين الإيمان والتقوى اللذين يمثلان أعلى درجات الطاعة عند الإنسان ، وبين ما يترتب عليها من جزاء عظيم قال تعالى: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ[٥]﴾ وقال تعالى: ﴿إِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ[٦]﴾ كما أنَّ ثمة توازنًا آخر بين الطاعة من جهة ، والهداية من جهة أخرى جزاءً على الهداية قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ[٧]﴾.

(١) سورة فصلت ، الآية : ٣٠.
(٢) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن ، الراغب ، ٦٩٢.
(٣) ينظر: الميزان ، الطباطبائي ، ١٧/ ٣٨٩.
(٤) من وحي القرآن ، فضل الله ، ٢٠/ ١١٥– ١١٦.
(٥) سورة آل عمران ، الآية : ١٧٩.
(٦) سورة محمد ، الآية : ٣٦.
(٧) سورة النور ، الآية : ٥٤.

المطلب الثالث : التوازن في الامامة:

تُعّد الإمامة أصلًا من أصول الدين لا يتم الإيمان إلّا بالاعتقاد بها، فهي رئاسة إلهية عامة وهي خلافة عن النبيﷺ شاملة لأمور الدين والدنيا؛ لأنّ النبوة بداية حياة والإمامة استمرار وامتداد لتلك الحياة(١)، وإنَّ الإمام كالنبيّ يجب أن يكون معصوما من جميع الرذائل والفواحش ما ظهر منها وما بطن، من سن الطفولة إلى الموت، وهم معصومون عن السهو والخطأ والنسيان؛ لأنّهم حفظة الشرع، والقوامون عليه حالهم في ذلك حال النبي ﷺ (٢)، والعصمة بمعنى المنع(٣)، والحفظ والوقاية(٤)، وفي المصطلح العقائدي: " لطفٌ يفعلُهُ اللهُ تعالى بالمكلّف، بحيث تمنع منه وقوع المعصية وترك الطاعة مع قدرته عليهما "(٥)، وقيل أيضا هي ملكة اجتناب المعاصي مع التمكّن منها(٦)، بمعنى أنَّ الله حفظ أنبياءه ورسله والائمة من الوقوع في الذنوب والمعاصي، صغيرها وكبيرها، من حين الولادة حتى الوفاة، فلا تصدر منهم المعصية حتى سهوا ونسيانا، وكل ما ينطبق على النبوة تشترك فيه الامامة إلا أنَّ الإمام لا يتلقى الوحي، ولا يختلف التوازن الذي بيانه في النبوة عنه في الامامة ، وستبين الباحثة مفاهيم إضافية لأهمية الإمامة في تطبيق التوازن في الآتي:

أولاً: التوازن في وجود الإمام وحفظ الأمة من الانحراف:

الإمام هو الشخص المقتدى به في أفعاله وأقواله، في قوله:﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ(٧)﴾، نستوحي من (يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا) القدوة في أفعال الإمام وأقواله في جانب التبليغ، وفي قوله:

(١) ينظر: عقائد الإمامية في ثوبه الجديد ، المظفر ، ٩١-٩٥
(٢) ينظر: المصدر نفسه، ٩٧.
(٣) ينظر: لسان العرب ، ابن منظور ، مادة عصم ، ١٢/ ٤٠٢.
(٤) ينظر: المصباح المنير، الفيومي ، ٤١٤.
(٥) النكت الاعتقادية ،محمد بن محمد النعمان المفيد (٤١٣هـ) ، ط١ ، دار المفيد للنشر ، ١٤٣١هـ ، ١٠/ ٣٧.
(٦) ينظر: التعريفات ، الجرجاني ، باب العين ، ١٢٧.
(٧) سورة السجدة ، الآية : ٢٤.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾، جانب الشخصية القيادية التي تمثل الثبات في مواجهة المزالق، ما يجعلها في موقع المسؤولية والقدوة العملية[1]، إنَّ دور الإمام لا يقل أهمية عن وجود النبي، فالدليل الذي يوجب إرسال الرسل ، وبعث الأنبياء هو نفسه يوجب نصب الإمام، فلا يجوز أن يخلو عصر من العصور من إمام مفترض الطاعة منصب من الله تعالى، فقد روي عن أمير المؤمنين ﷺ قوله: (لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة، أما ظاهرا مشهورا، أو خائفا مغمورا، لئلا تبطل حجج الله وبيناته)[2].

من هنا يتبين للبحث أنَّ وجود الأئمة كونهم خلفاء للنبي ﷺ من شأنه أن يُحدث توازنا بين وجودهم من جهة ، وحفظ الأمة من الانحراف عن الجادة من جهة أخرى ، وبين إتمام الحجة في قوله: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ[3]﴾ من جهة ثالثة.

وبتوجيه آخر إنَّ وجود الأئمة يحقق التوازن أيضا بين عدم انحراف الأمة من جانب، وبين استمرارية الحجة لله على خلقه من جانب آخر ، بل إنَّ وجود الإمام مدعاة لبقاء الكون وديمومته واستقراره فعن (علي بن إبراهيم عن محمد بن عيسى عن محمد بن الفضيل عن أبي حمزة قال: قلت لأبي عبدالله ﷺ أتبقى الأرض بغير إمام؟ قال: لو بقيت الأرض بغير إمام لساخت)[4] ، والرواية واضحة الدلالة بوجوب ، وعلاقة وجود الإمام في حفظ التوازن الكوني فضلا عن التوازن العقدي.

ثانيًا: التوازن في الطاعة والولاية:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[5]، والآية تخاطب المؤمنين ، وتأمرهم بإطاعة الله ورسوله ﷺ ، وإطاعة أولي الأمر على صعيد واحد ومرتبة واحدة.

(١) ينظر: من وحي القرآن ، فضل الله ، ٣/ ١٦ -١٧.
(٢) نهج البلاغة ،خطب الامام علي ﷺ (ت ٤٠ هـ)، شرح: محمد عبده، ط١، النهضة ، دار الذخائر ، قم، ١٤١٢هـ، ٤/ ٣٧.
(٣) سورة الانعام ، الآية : ١٤٩
(٤) الكافي ، الكليني ، ١/ ١٧٩
(٥) سورة النساء ، الآية : ٥٩

ويمكن القول إنَّ الآية تعكس توازنا عقائديا خلاصته : أنَّ الله يأمر المؤمنين بإطاعته، ثم بإطاعة نبي الرحمة ﷺ وأولي الأمر، ما يُوحي بأنَّ طاعتهما تُوازن طاعة الله سبحانه ، وقد ورد في تفسيرها ما يؤكد ذلك المعنى إذ ورد في تفسير(وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)، قيل "أي والزموا طاعة رسوله ﷺ أيضا وإنّما أفرد الأمر بطاعة الرسول وإنْ كانت طاعته مقترنة بطاعة الله مبالغة في البيان ، وقطعا لتوهم من توهم أنّه لا يجب لزوم ما ليس في القرآن من الأوامر"(١).

والقيادة الشرعية وحدها لها حق الطاعة، "وهذا ما يريد اللهَّ سبحانه أن يخطّط للمسلمين ويدخلهم في أجواء النظام، على أساس النظرية والتطبيق معا، فيدعوهم إلى عدّ الطاعة لله وللرسول ولأولي الأمر قاعدة ثابتة، ترتكز عليها الحياة العامة، في ما تمثله من السير على الخط الذي يرسمه الرسول في تخطيطه للمسار العملي في تفصيلات الأمور، وجزئيات القضايا، و حركة الصراع، و قيادة الأمة إلى أهدافها ، وتحريك الساحة نحو المواقف الحاسمة في مواجهة التحديات، وتفجير الطاقات في سبيل الإبداع والعطاء"(٢).

أما ما يخص مفهوم الولاية فإن التوازن يأخذ بعدا أعمق وأوكد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ الله وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ(٣)﴾، إذْ انحصرت الولاية بين الله سبحانه ورسولهﷺ، بنحوٍ متساوٍ ومتوازن بينهم ،وهو الأمر الكاشف عن أهمية ومكانة ولاية الذين آمنوا ، وإنّها امتداد لولاية الله سبحانه ، وقد ورد في تفسيرها ما يؤكد ذلك إذ ورد في تفسير هذه الآية أنها بُدئت "بكلمة (إنّما) التي تفيد الحصر، وبذلك حصرت ولاية أمر المسلمين في ثلاث هم: اللهّ ورسوله ﷺ، والذين آمنوا وأقاموا الصّلاة وأدوا الزّكاة وهم في حالة الركوع في الصّلاة، وأنّ المراد من كلمة (وليّ) في هذه الآية هو : ولاية الأمر والإشراف وحق التصرف والزعامة المادية والمعنوية، خاصّة وقد جاءت مقترنة مع ولاية النّبي ﷺ وولاية اللهّ حيث جاءت الولايات الثلاث في جملة

(١) مجمع البيان ، الطبرسي ، ٣/ ٩٩
(٢) من وحي القرآن ، ٧فضل الله ، / ٣٢٤
(٣) سورة المائدة ، الآية : ٥٥

واحدة"[١].

ثالثًا: التوازن في شخصية الإمام القيادية:

كما أنَّ من مهام الإمام ووظائفه والتي تمثل استكمالا للتوازن في المجتمع ، وحفظ الأمة من الانحراف، " فقد كان النبي حصن الحق وملجأ الأمة الفكري، والمانع من تطرق الانحرافات الفكرية والأخلاقية ، والعقائدية والسلوكية، ولابد من إمام يواصل هذا النهج ليحفظ الأمة من التشتت المذهبي ، والخلاف الديني والفكري "[٢]، فوجود الإمام حافظ للأمة من الانزلاق في مهاوي هذه الانحرافات في تطبيق التشريعات الإلهية التي أوجبها القرآن الكريم كما في قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ[٣]﴾، فالولاية الإلهية تمنح لمن فيهم الاستعدادات ، والتقدّم في الإخلاص والعمل، ومن لهم القابلية في تطبيق الشريعة بحذافيرها، وقد اقتصرت الآية على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؛ لانّهما كمال الإخلاص والانقطاع إلى الله –عز وجلّ – وفيهما نبذ للشهوات وحب الدنيا، والفعل المضارع في (يُقِيمُونَ وَيُؤْتُونَ)، على الاستمرار والتكرار والتجدد، وكامل رغبتهم في الإحسان[٤].

رابعًا: التوازن والانتظار:

جاء في الحديث الشريف عن محمد بن الحسين، عن جعفر بن بشير، عن موسى بن بكر الواسطي، عن أبي الحسن عن آبائه عليهم السلام أنَّ رسول اللهﷺ قال: (أفضل أعمال أمتي انتظار الفرج من الله عز وجل)[٥].

إنَّ مفهوم الانتظار يحدّد الرؤية الصحيحة والمتوازنة لمسيرة الإنسان والهدف منها،

(١) الامثل ، الشيرازي ، ٤/ ٤٧

(٢) القول الثابت ، ، محمد جمعة بادي ،(د ط)، شركة ذو الجناح للإنتاج الفني ، الكويت ، ١٤٢٩هـ، ١٠٩.

(٣) سورة المائدة ، الآية : ٥٥.

(٤) ينظر : مواهب الرحمن ، السبزواري ، ١١/ ٤١٥ – ٤١٦.

(٥) كمال الدين وتمام النعمة ، ابو جعفر محمد بن علي بن بابويه الصدوق القمي (ت٣٨١هـ)، تح علي اكبر الغفاري ، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.، ١٤٠٥هـ ، ٦٤٤.

فكان المائز للمعتقد بالإمام المهدي ﷺ فالانتظار: هو الترقب، والتهيؤ، والامل المنشود، والانتظار ممارسة عبادية وشعور وجداني، وحركة حضارية واستعداد نفسي وعقلي للتغيير والتطلع له، محورها الغيب والتوازن[1]، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ[2]﴾، وهذا التغيير في ظل الانتظار يتخذ التوازن فيه بعدين في الحياة الإنسانية:

الأول: التهيؤ والاستعداد على مستوى الفرد، والثاني: التهيؤ والاستعداد على مستوى الجماعة، وهذان البعدان لهما ركائز تحدد سير كُل منها المفاهيم الآتية[3]:

الولاء: كما في قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ[4]﴾، قيل في الولاء بين المؤمنين: إنهم ذوو كينونة واحدة متفقة لا تشعب فيها ولذلك يتولى بعضهم أمر بعض ويدبره؛ ولذلك كان يأمر بعضهم بعضا بالمعروف وينهى بعضهم بعضا عن المنكر، ويقيمان ركنين وثيقين في الشريعة فالصلاة ركن العبادات التي هي الرابطة بين الله وبين خلقه، والزكاة في المعاملات التي هي رابطة بين الناس أنفسهم[5].

على أنَّ طاعة شرائع الله النازلة من السماء كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الصلاة والزكاة تتوازن مع إطاعة الرسول فإنَّ الرسول هو الصادع بالحق القائم بالدعوة إلى أصول الدين وفروعه، والرحمة هي نتيجة في القضاء الإلهي من شمول الرحمة الإلهية لهؤلاء القوم الموصوفين بما ذكر.

الصبر: في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[6]، وُصِف الصبر في القرآن الكريم بأوصاف منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ

(١) ينظر: العدالة في فقه أهل البيت ﷺ، المعلم، ٢٨.
(٢) سورة الرعد، الآية: ١١.
(٣) ينظر: العدالة في فقه أهل البيت ﷺ، المعلم، ٢٨ – ٢٩، بتصرف.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٧١.
(٥) ينظر: الميزان، الطباطبائي، ٩/ ٣٣٨.
(٦) سورة البقرة، الآية: ١٥٣.

مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ[١]﴾، وقوله تعالى: ﴿وَما يُلَقَّاها إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَ ما يُلَقَّاها إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ[٢]﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ[٣]﴾.

إن قدرة الانسان على الصبر والصلاة في ظروف انتظار الفرج تتوازن مع وجود الله وقيمومته مع الصابرين ، فعلى قدر الاستعانة يكون المدد الإلهي والمعونة الإلهية محيطة بالمؤمنين المنتظرين.

الأمل : في قوله تعالى:﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ[٤]﴾، (نَّمُنَّ) هنا العطاء من النعمة ما يثقلهم، وتمكينهم في الأرض أي إعطاؤهم فيها مكانا يملكونه ويستقرون فيه، والافعال المضارعة (نُرِيدُ) و(نَّمُنَّ و(نَجْعَلَهُمْ)، هي دلالة على الاستمرارية والمستقبل[٥].

إن عطاء النعم الكثير من الله سبحانه تتوازن مع استمرارية هذا العطاء وقدرة الجعل والتدبير الإلهي.

وهكذا يستكمل التوازن دوره في بناء الشخصية المنتظر القادرة على تفعيل دورها في قيادة المجتمع في زمن الغيبة ، كما في قول الرسول ﷺ : (طوبى للصابرين في غيبته، طوبى للمقيمين على محجتهم، أولئك وصفهم الله في كتابه وقال: ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾[٦].

(١) سورة لقمان ، الآية : ١٧.
(٢) سورة فصلت ، الآية : ٣٥.
(٣) سورة الزمر ، الآية : ١٠.
(٤) سورة القصص، الآية : ٥.
(٥) ينظر: الميزان ، الطباطبائي ، ١٦/ ٩ ، وينظر: الأمثل ، الشيرازي ، ١٢/ ١٧٤
(٦) بحار الأنوار ، المجلسي ، ٣٦/ ٣٠٦.

الخاتمة

بعد هذه الجولة العلمية مع مفهوم التوازن العقدي، توصل البحث إلى جملة نتائج على النحو الآتي:

إنّ الاعتقاد السليم بتوحيد الله تعالى يجب ألّا يخرج عن حد التوازن ، والاعتدال والأمر بين الأمرين في عقيدة التنزيه وعقيدة الاختيار.

إنّ وجود الانبياء في حياة الناس يحقق التوازن المعرفي للتكامل الذي يحتاجه الإنسان لسد النقص المعرفي لديه في رسم طريق للحياة على مستوى الطاعات والعبادات والمعاملات.

وجود التوازن في شخصية الامام القيادية يُعدّ استكمالًا للتوازن في المجتمع ، وحفظ الأمة من الانحراف والانزلاق في منح الاستعدادات ، والتقدم في الاخلاص والعمل في تطبيق الشريعة بحذافيرها.

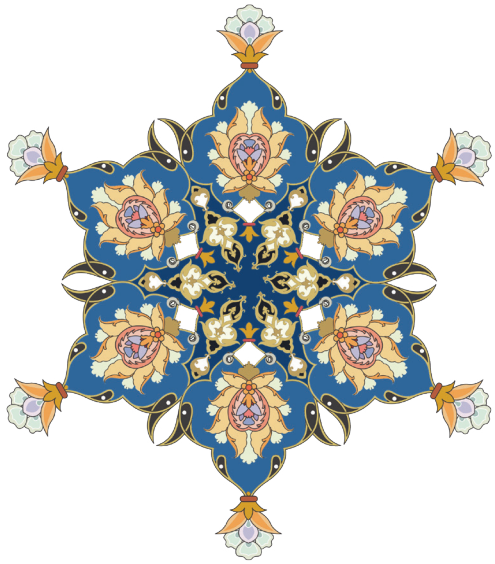

المصادر و المراجع

١. القرآن الكريم

٢. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ، ناصر مكارم الشيرازي ، ط١ ، سليمان زاده ، مدرسة الامام علي بن ابي طالب عليه السلام ايران – قم ، ١٤٢٦هـ .

٣. آيات العقائد ، ابراهيم حجازي طبسي (١٣٧٧هـ) ، تح رامين الكلمكاني، ط ١، مجمع البحوث الإسلامية، مؤسسة الاستانة الرضوية المقدسة مشهد، ١٤٢٥هـ .

٤. بحار الأنوار ، محمد باقرالمجلسي (ت١١١٠هـ) ، ط٣ ، دار احياء التراث العربي، بيروت – لبنان ،١٤٠٣هـ.

٥. التحقيق في كلمات القرآن ،حسن محمد رحيم مصطفوي (ت١٤٢٦هـ) ، ط١، مركز نشر اثار العلامة المصطفوي ، طهران، ١٤٣٥هـ.

٦. التعريفات، علي بن محمد الجرجاني (ت٨١٦هـ) ، تحقيق محمد صديق المنشاوي، (د ط)، دار الفضيلة للنشر والتوزيع ، مصر، ١٤٢٥هـ.

٧. تفسير القرآن الكريم، محمد بن محمد بن النعمان المفيد (ت٤١٣هـ)، تح، محمد علي ايازي، ط١ ،مؤسسة بوستان مكتب الاعلام الاسلامي ، قم ،١٤٢٤هـ .

٨. تفسير تسنيم في القران الكريم ، عبد الله الجوادي الطبري الآملي ، تعريب محمد حسين حكمت ، ط١ ، دار الاسراء للنشر ، مكتبة مؤمن قريش ، بيروت – لبنان، ١٤٣٧هـ.

٩. التكامل الاجتماعي للإنسان ، مرتضى محمد حسين مطهري (ت ١٣٩٩هـ) ، ط٤، دار الهادي ، بيروت – لبنان ، ١٤٢٦هـ.

١٠. التوحيد في القرآن ، عبد الله الجوادي الآملي ،(د ط)، دار الصفوة ، بيروت – لبنان، ١٤٢٩هـ .

١١. التوحيد ، ابو جعفر محمد بن علي بن بابويه الصدوق القمي (٣٨١هـ) ، تعليق هاشم الحسيني الطهراني،(د ط)، مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسي ، قم،(د ت).

١٢. الخلاف ، ابي جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ) ،(د ط) مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة الدرسين ، قم ، ١٤٠٧هـ.

١٣. الدروس التوضيحية في شرح العقائد الامامية ، طالب الساعدي ، النجف الاشرف، كتاب الكتروني.

١٤. العدالة في فقه أهل البيت ، محمد علي صالح المعلم ، تقرير مسلم الداوري ، تح حسن العبودي ط١، سرور ، مدين ، ايران – قم ، ١٤٢٥هـ.

١٥. عقائد الامامية في ثوبها الحديد ، محمد رضا المظفر (ت ١٣٢٢هـ) ، ط١ ، الاميرة للطباعة والنشر ، بيروت – لبنان ، ١٤٢٩هـ.

١٦. القول الثابت ، محمد جمعة بادي ، (د ط)، شركة ذو الجناح للإنتاج الفني ، الكويت، ١٤٢٩هـ.

١٧. الكافي ، محمد بن يعقوب الكليني (ت٣٢٩هـ) ، تصحيح وتعليق : علي أكبر الغفاري، ط٤ ، مطبعة الحيدري ، دار الكتب الاسلامية ، طهران،١٣٦٧هـ .

١٨. الكامل في ضعفاء الرجال ، عبد الله بن عدي الجرجاني (ت٣٦٥هـ) ،تح يحيى مختار غزاوي، ط٣، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لينان ، ١٤٠٩هـ.

١٩. كمال الدين وتمام النعمة ، ابو جعفر محمد بن علي بن بابويه الصدوق القمي (ت٣٨١هـ)، تح علي اكبر الغفاري ، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.

٢٠. لسان العرب ، ابي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور (ت٧١١هـ) ، ط٣، دار صادر ، بيروت ، (د ت).

٢١. مجمع البيان في تفسير القرآن ، الفضل بن الحسن الطبرسي (ت٥٤٨هـ) ، تقديم محسن الأمين العاملي ، ط١ ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت – لبنان ، ١٤١٥هـ .

٢٢. المصباح المنير ، احمد بن محمد بن علي المقري الفيومي (ت ٧٧٠هـ) ، تح عبد العظيم الشناوي ، ط٢، دار المعارف ، القاهرة (د ت).

٢٣. مفردات ألفاظ القرآن ، الراغب الاصفهاني الحسين بن محمد بن المفضل (ت٥٠٢هـ)، تح صفوان داوودي ،ط٣، دار القلم ،(د ت).

٢٤. مقاييس اللغة ، ،ابي الحسن احمدابن فارس (ت٣٩٥هـ)، تح :عبد السلام هارون، (د ط) ، دار الفكر ، ١٣٩٩هـ ، (د ت).

٢٥. من الظواهر العامة في الإسلام ، محمد علي التسخيري (ت١٤٤١هـ) ، ط٢، المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب – المعاونية الثقافية ، مكتبة نرجس، ايران – طهران، ١٤٣٠هـ.

٢٦. من وحي القرآن ، محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١هـ) ، ط٢، دار الملاك بيروت – لبنان ، ١

٢٧. مواهب الرحمن في تفسير القرآن ، عبد الاعلى الموسوي السبزواري (ت ١٤١٣هـ)، ط٥ ، دار تفسير للنشر ، ايران – قم ١٤٣١هـ .

٢٨. الميزان في تفسير القرآن ، محمد حسين الطبطبائي (ت١٣٤٤هـ) ، تصحيح حسين الاعلمي ،ط١،منشورات الأعلمي للمطبوعات ، بيروت – لبنان ،١٤١٧هـ.

٢٩. نفحات القرآن ، ناصر مكارم الشيرازي ، ط١ ، مدرسة الامام علي بن ابي طالب، ايران – قم ١٤٢٦هـ.

٣٠. النكت الاعتقادية ، محمد بن محمد النعمان المفيد (٤١٣هـ) ، ط١ ، دار المفيد للنشر، ١٤٣١هـ .

٣١. نهج البلاغة ، خطب الامام علي عليه السلام (ت ٤٠ هـ) ، شرح محمد عبده ، ط١ ، النهضة، دار الذخائر ، قم، ١٤١٢هـ.